رحمـــة السماء . .

إن العزلة ياصاحبي ، وإن كانت مرهقة للنفس حينا ، إلا أنها مريحة للفكر والقلب أحياناً ، سواء أكانت للراحة من عناء العمل ، أو للتأمل فى هذا الكون الغريب . . .

وإذا لم يقدر لنا مشاركة بعض الناس مشاركة فعلية فى معيشتهم اليومية فلا أقل من أن ننتقل إلى أجوائهم التى يعيشون فيها ، لأننا فى حاجة إلى نوع من « الشفقة » فى هذا العصر العجيب . . خلوة بنفسك تستريح فيها من متاعب الحياة وتتجه فيها بكل جوارحك إلى السماء تحس بأنك تشغل فراغاً غير فراغنا هذا . . فراغ تشعر ، فى وحشته أو أنسه ، على حد سواء ، بأنات البائسين تستحوذ على قلبك بعدما ذهب معظمها أدراج الرياح . . فراغ تشعر فيه بآهات المعوزين تستقر فى قرارة نفسك بعد ماتلاشى جلها وسط هذا الضجيج الصاخب . . فراغ تلمس فيه شكوى المظلومين تملك عليك أحاسيسك بعدما صمت دونها الاسماع فراغ تشعر فيه بالمرارة والحسرة من حالة أمثال هذه الكتل البشرية التى تعيش على هامش الحياة والتى تمر موا كبها أمام أعيننا فى لمح البصر كأنها لم توجد قط ، أو وجدت من العدم لتعيش فى العدم . وبجانب هذا الشعور المؤلم الذى يبعثه فينا أقوام قدرت لهم حياة الكفاف والعفاف نحس الإنسان بشعور لايقل فى إيلامه عن سابقه ، يثيرة فينا السخط الذى يبعثه أولئك الذين تربعوا على عروش الظلم والاستبداد وأباحوا لأنفسهم ماحرم الله . . .

ويقينى أنك شاهدت موكباً من هذه المواكب يتحرك إلى عالمه الآخر ، موكب يسير فتتمثل فيه مأساة أخذت مناظرها من مجاهل الحياة ، ومثلت خلف الستائر ، أو أمام جمهور أعمى البصر والبصيرة ، وقام بالتمثيل أشخاص عاشوا وفنوا فى عالم اللاوجود . . موكب ليس من نسج الخيال ولكنه من صميم الواقع . . وقد فارق هذا الموكب الحياة حيث لابد له من فراقها ، إن عاجلا أو آجلا ، إذ لم يعد له مكان فى هذه الدنيا التى أصبح القول الفصل فيها لصاحب الطول والحول بعد ماتخلى عن صفاته الإنسانيه النبيلة . .

قوى بسعى للسيطرة على الضعيف ، ولا يخشى قول القادر العظيم « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » وأغنياء يبتزون الأموال ويكنزونها وإن هلك الفقراء فاقة وجوعا ، غير مصغين لقوله وسعت رحمته « ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده » ومغرورون ينظرون إلى الناس بمنظار الساخر المستهزىء ، غير عابئين بقوله سمت رفعته « ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا » ومجرمون ينهبون ويقلقون راحة الآمنين وإن كان مجال الرزق أمامهم واسعاً ، غير مستمعين لقول الخالق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » . .

هذه صورة للحياة التى ودعها ذلك الموكب غير آسف عليها . . أسرة سلبت حقوقها ، فتحولت من عائلة متوسطة الحال إلى هياكل وأشباح تدب دبيب النمل فى سكون الليل الرهيب ، باحثة عن قوتها ولقمة عيشها . . لفظتها المدينة إلى أقذر حى فيها تعانى البؤس فى أبشع صوره ، معتمده على بعض إحسان المحسنين الذين قل من ينفق منهم رئاء للناس ولا يتبع إنفاقه منا ولا أذى . . ويكفى أن تعرف من نكد الدنيا على هذه الأسرة البائسة أن أكبر أبنائها وساعدها الأيمن قضى وقتاً طويلا من حياته فى ظلام السجون ثم أفرج عنه ليسخره أصحاب الدبون فى ركوب البحار حتى لفظ آخر أنفاسه بين أمواج المحيط .

هذه هى أسرة البؤس وضحية الظلم ، عاشت كما تعيش مئات من الأسر فى عالم المجهول والنسيان ، مات عائلها ومناط أملها وبقيت أخته ، المصدر الوحيد لرزقهم ، لاتعرف الراحة ولا تذوق طعما لحياتها الزوجية . ويوماً واحداً تستريح فيه من متاعب الخدمة معناه أن تظل هى وأمها العجوز ووالدها الكهل خاوى البطون طول يومهم ، وهذا شرط من شروط الطبقة الارستقراطية التى تمليها على خدمهم . . .

مكثت شهوراً على هذه الحالة الشاقة المضنية استسلمت بعدها مرغمة لآلام الحمل ، ومرت عليها الشهور المعتادة للوضع ولكنها لم تلد ، وبدا من الأمراض التى ظهرت

عليها أن الأعمال التى قامت بها كانت فوق طاقتها وقدرتها مما سبب لها هذا العسر .

وفى ليلة ، جاءها المخاض، وأخذت تعانى من آلام الولادة مامر مذاقها .. ومرت عليها ساعات وساعات تحول خلالها الأنين إلى عويل والأمل إلى يأس ، والفرح إلى حزن . . وبالقرب منها أمها تتلو عليها من آيات الله الكريمة ، ولعل هذا هو الدواء الوحيد الذى تستطيع الحصول عليه لابنتها العليلة من غير أن تبسط يد الاستجداء والاستعطاف . ولما أظلمت الدنيا فى عينيها ، وأوصدت الأرض جميع أبواب الرحمة فى وجهها ، وحينما بان لها أن ليس لها من الحياة إلا آلامها شخصت ببصرها إلى السماء مبتهلة إلى ربها بعاجل الشفاء لوحيدتها . . . وراح الجميع يترقب ساعة الفرج بفارغ الصبر، وأصبحت الدموع والأحزان عزاءهم الوحيد بعد ماعز العزاء حتى أشفقت السماء عليهم ، واستجابت لدعاء الداعين لهم بالراحة والخلاص...

. . . وفاضت روح المريضة إلى ربها ، وكان من الطبيعى أن يكون مصير الابن مصير الأم...

بكت عليها أمها ، وهى وإن لم يكن البكاء لديها جديداً ، إلا أنها بكت على الرغم منها بكاء الثكلى ، وهى لا تدرى لماذا تبكى أللحزن أم للفرح ؟.. ألأن أعباء الحياة خفت عنها إلى الأبد ، أستغفر الله . . أم لأن السماء أراحتهم من آلام هذا الوجود ومتاعبه ، لاأدرى ولربما كان هذان العاملان هما اللذان استدرا دمعها فبكت هذا البكاء المرير حتى ابيضت عيناها وخارت قواها .. كانت تبكى حزناً لأنها تستجيب لغريزة الأمومة ، وهى تبكى فرحا لأن إيمانها قوى بمشيئة الله وإرادته ، وأملها كبير فى أن يجيب دعوتها « اللهم اجعل لنا من هذه الأرواح البريئة شفيعاً فى الآخرة بعد ماحرمنا الشفاعة فى الدنيا . . .

يوسف محمد الشايجى

خواطر طفلة

نخشى أن تتسرب إلينا فكرة الكم لا الكيف أو المظهر لا المخبر فإن لدينا أسماء مختلفه ، وكلها تعالج مشاكل اجتماعية خطيرة ، لكن الإنسان - كما قيل - يطالب بالحرية عندما يتذوق طعم الحرية ويطالب بالإصلاح عندما يرى الإصلاح. وعندما تفقد هذه المميزات تراه لايحرك ساكناً لأنه لم يتذوق طعم إحداها .

مررت أحد الأيام بالمستشفى الجديد مشرفا على البحر بهندسته الجميلة على شكليه الأندلسى والأفرنجى، يبهر الناظر حسن منظره ، تتقدمه ساحة منبسطة تنتهى بالساحل الذهبى الجميل ، ويفكر من يقوم بإدارة هذا المستشفى الجميل بأن يجهز تجهيزاً ممتازاً يجعله الوحيد فى الخليج . .

وقد كان معى والدى فسألته عن هذا المبنى الفخم فقال: « إنه المستشفى . فبعد افتتاحه تنتهى مشكلة تضخم المرضى عند أبواب مستشفيانا القديمة الراهنة وسوف يتيسر العلاج فيه على أحدث الطرق وستقاوم إدارة الصحة الفكرة الراسخة عند بعض الناس : « سيف من خشب فى جراب من ذهب ! . »

وسيفتح فيه فرع للولادة فبعد اليوم لايتيتم أطفال من أمهاتهم ولا تحزن أمهات على أطفالهن إلا ما كتب الله . وسوف ترتاح مولدتنا الوحيدة من المكاردة للتوليد، وتكون أختك أو أخوك القادم أحسن حظا منك لأنك قاسيت فى ولادتك العسر وأشرفت على الاختناق وكدت أن تودى بأمك إلى الهلاك . وقد حاولنا عمل المستحيل لإحضار المولدة الوحيدة لعمل اللازم لك ولكننا فشلنا إذ المولدة محجوزة لأطفال قبلك بالعشرات، والتوليد على نظام الأول فالأول !.. فاضطررنا والحالة هذه إلى « أم عباس » فجاءتنا بأوامرها ونواهيها ومعلوماتها الموروثة والمكتسبة ، ولكنك خرجت أخيراً بمشيئة الله، لاحول لها فى خروجك ولا طول ، غير قطع السرة وتطعيمك الدهن العدانى، غير عابئة بما أصابك من عسر هضم ومتاعب »

بعد سماعى لحديث والدى أيقنت أننا فى أمس الحاجة إلى مستشفى للولادة تتناوب فيه مالايقل عن ثمان من المولدات تحت أمرة طبيبتين أو طبيبين حاذقين . . وبعد ، فليهنأ الأطفال الذين لايزالون فى الركاب !..

« طبق الأصل »

ابتسام عبد الله عبد اللطيف

اطلبوا مصحف طبع
مطبعة دار التاليف ٨ شارع يعقوب بمصر